«نساء نوبل» لخالد غازي:

المرأة العربية ليست على خارطة الجائزة

د. أسامة فتحي*

■ لماذا يخصص الكاتب خالد غازي كتابه «نساء نوبل» عن النساء اللواتي فزن بجائزة نوبل في الآداب فقط؟ وهل هناك سمات وخصائص بعينها تستوجب تجميع نساء نوبل تحت مظلة واحدة...؟

يقول المؤلف في مقدمة كتابه: «لم يكن الهدف من هذا التخصيص هو مجرد التفرقة بين الرجال والنساء الذين فازوا بالجائزة، أو نوعًا من التقسيم حسب الجنوسة، بل إن هناك مبررات وفقًا لمعطيات وضرورات جامعة، تتجلى من خلال استقراء السيرة الذاتية لكل النساء المبدعات، شاعرات وروائيات، ممن كان لهن نصيب مع نوبل».

إن التجارب المريرة والاستلاب الفكري والاجتماعي والتمييز العنصري هي العوامل المشتركة التي تجمع بين المبدعات الحاصلات على نوبل، مع أن معظمهن عشن ببلدان شهدت جوانب أساسية في الثورات الصناعية والفكرية، وحيث غابت المرأة المبدعة الاسيوية تماما، عن نيل جائزة نوبل.. ولم تكن نساء القارة الأفريقية أفضل حالاً، ماعدا الأديبة «نادين غورديمر» التي تعتبر مواطنة من جنوب أفريقيا، غير أنها في واقع الأمر أوروبية الأصل، إذ نزح والداها من القارة الأوروبية إلى أفريقيا حيث ولدت.. وغابت كذلك المبدعة العربية، ولم تحظ بالجائزة امرأة من أمريكا اللاتينية إلا الشاعرة الشيلية «غابريلا ميسترال» وكان هذا عام 1945، وفيما عدا ذلك فإن نساء نوبل توزعن بين أمريكا والدول الأوروبية، فكانت أول فائزة بها من السويد، موطن الجائزة، حيث حصلت عليها الأديبة السويدية «سلمى لاجيرلوف» عام 1909 وكانت تلك الكاتبة ـ وهي يهودية ـ في قمة شهرتها.. وكان لها تأثيرها على توازنات ثقافية وسياسية وفكرية كثيرة، فيكفي أن نعلم أن «لاجيرلوف» أصبحت بعد فوزها بالجائزة بخمس سنوات واحدة من أعضاء الأكاديمية السويدية التي تتولى الترشح لجائزة نوبل.. ومن السويد لم تخرج الجائزة نحو قارة أخرى غير أوروبا، فقد ذهبت نحو ايطاليا لتكسبها الروائية «غراتسيا ديليدا» في عام 1926.. وعادت الجائزة ثانية بعد عامين إلى دولة اسكندنافية أخرى غير السويد، وهي النرويج حيث حصلت عليها الروائية «سيغريد آندسيت» عام 1928 لتبقى الجائزة محصورة في نطاق القارة الأوروبية.. وبعد عشرة أعوام انتقلت من أوروبا إلى أمريكا، لتحصل عليها الروائية الأمريكية «بيرل بك» بعد انقطاع الجائزة عن إبداع المرأة لمدة عشرة أعوام متتالية.

الجائزة مناصفة

وقبل أن تعود الجائزة ثانية إلى السويد عام 1966،حيث فازت بها مناصفة الكاتبة اليهودية «نيلي ساخس» مع الإسرائيلي «صموئيل آنيون».. توقفت عام 1945 عند أمريكا اللاتينية لتحصل عليها الشاعرة الشيلية «غابريلا ميسترال».. ومنذ عام 1966 وحتى 1991، غابت المرأة المبدعة مرة ثانية عن جائزة نوبل.. وهو غياب قارب الربع قرن، حيث احتكر الفوز بها الرجال المبدعون من الأدباء.. وفي عام 1991 تكون نوبل النسائية.. ولأول مرة قد انتقلت من أوروبا إلى جنوب أفريقيا.. غير أن الفائزة بها لا تنتمي في الأصل إلى هذه القارة فهي ـ كما ذكرنا ـ من أصول أخرى فوالدها من ليتوانيا وأمها من بريطانيا.. وهذا يعني أن أوروبا ما زالت حاضرة، وتشترك الكاتبة الأفريقية البيضاء «نادين غورد يمر» الفائزة بالجائزة مع «بيرل بك» في سمة أساسية، إذ أن كلا الكاتبتين عبرتا عن حياة ومعاناة شعوب لا تنتميان إليها، فالأمريكية «بيرل بك» كانت كل رواياتها عن الصين.. و«نادين غورديمر» تناولت في رواياتها الزنوج والاضطهاد الذي يعاني منه الإنسان الأسود في موطنه وعلى أرضه.. إلا أن جائزة نوبل يعاودها الحنين إلى المرأة لتتوجه إلى أمريكا بعد عامين فقط لتفوز بها «توني موريسون» سنة 1993.. ويتكرر المشهد للمرة الثالثة في عبور الجائزة المحيط الأطلسي نحو أوروبا.. وعند بولندا تحديدا، حيث كانت الكاتبة البولندية «فيسلافا شيمبورسكا» تتناول طعام غدائها وقت إعلان الأكاديمية السويدية فوزها بالجائزة.. حدث هذا يوم 3 تشرين الاول (أكتوبر) من عام 1996.. ولم يكن بمقدور أحد أن يبلغها الخبر على الفور، إذ كانت تلك الأديبة توصي الجميع بعدم إزعاجها...!

معاناة واضطهاد

تسع نساء مقابل عدد كبير من الرجال، إنما تعد نسبة قليلة، فهل يمكن القول أن هناك شبهة تعمد في إبعاد الجائزة عن المرأة، فيما تلاشى تماما كل اسم عربي أو آسيوي من المبدعات من أفق الجائزة.! هذا إذا افترضنا جدلا أن ثمة أسماء منها قد استدعتها ذاكرة الأكاديمية السويدية المانحة للجائزة.. وسواء هذا أم ذاك، فإن عودة تلك الجائزة إلى النساء اللواتي فزن بها سيكشف عن سمات وروابط تجمع بينهن.. وتتمثل إحدى هذه الروابط في الاضطهاد الذي كان هو البوتقة التي انصهرت فيها إبداعات الكاتبات الحاصلات على نوبل.

وإذا كانت المبدعات قد واجهن ألوانا متباينة من صور الاضطهاد.. أليس لنا أن نتساءل: كيف هو إذن حال المرأة العادية. إنه موضوع آخر دون شك!! إن أول كاتبة حصلت على نوبل هي «سلمى لاجيرلوف»، وقد كانت تشكو كامرأة من معاناة تشبه معاناة النساء الأخريات، فقد أصيبت وهي في التاسعة من عمرها بشلل في الساقين أقعدها عن مزاولة أي حركة مما أثر بالتالي على تركيبتها النفسية، حيث ابتعدت عن اللعب واللهو وحرمت من المدرسة.. وحينما بدأت تكتب كانت تعيش حياة خاصة فيها شعور مضن بالوحدة والاغتراب، حيث قالت في يوم: «حينما أكتب أعيش في وحدة كبيرة، وعليّ أن أختار بين عيشي لوحدي ووحدتي، وبين أن أكون مع الآخرين، فلا أقدر أن أكتب شيئا..».

أما الكاتبة الإيطالية «غراتسيا داليدا»، فقد عاشت الوحدة هي الأخرى، لكنها وحدة جغرافية، إذ أنها ولدت وعاشت في جزيرة إيطالية هي «سردينيا» التي كانت تعشعش فيها الكثير من التقاليد البالية المجحفة بحق المرأة، فكل شيء مغلق.. والناس يعيشون في الجزيرة على وتيرة واحدة وأسلوب مكرر، يؤمنون بالشعائر والطقوس المنقرضة كالسحر والأساطير، التي استمدت منها الكاتبة جل أعمالها والتي رشحتها فيما بعد لنيل نوبل.. وفي شباب هذه الكاتبة، كانت الطموحات تدفعها إلى الخروج من قمقم الجزيرة، فهي لم تتزوج إلا بالرجل الذي استطاع أن ينقلها إلى روما.. ومن هناك بدأ حقا تحررها الفكري والإبداعي.. كما أن ظروف معيشتها الصعبة في الجزيرة كانت سببا في حرمانها من إكمال دراستها، وهذا ما جعلها تثأر لحريتها المكبوتة والمصادرة في الماضي كامرأة.. وبقيت وهي في الستين من عمرها تتأمل ما مضى وتتطلع نحو تحقيق مزيد من النجاحات لتعويض ما فات بذل أقصى ما تستطيع.

ولم تكن «سيغريد آندسيت» الفائزة الثالثة بأفضل حظاً من سابقاتها، فقد توفي والدها وهي في الحادية عشرة من عمرها، وعانت أسرتها من صعوبات مالية بالغة.. وكان لسنوات الفقر والحاجة تأثير عميق لدى هذه الكاتبة.. حيث دونت كل ذلك فيما بعد في إحدى أهم رواياتها وهي «السنوات الطوال» التي صدرت عام 1934.

وفي بداية شبابها، رغبت في دراسة الرسم، غير أن طموحها هذا تلاشى تحت إلحاح الحاجة للمال، فاضطرت لترك دراستها والتوجه نحو العمل في إحدى المؤسسات التجارية..ولم تكن الكتابة بالنسبة لها ولسنوات عديدة، عبارة عن مهنة تتكسب منها رزقها، ولم تهنأ بحياتها حتى بعد أن تزوجت من فنان تشكيلي كان قد طلق زوجته وله ابنة مختلة عقلياً، حيث لم يستمر زواجهما نتيجة مشاكل عديدة.

وإذا كانت تلك الفتاة، ابنة زوجها المختلة عقليًا هي السبب في فشل زواج «سيغريد آندسيت» لتعيش بعد ذلك حياة مضطربة، فإن الكاتبة الأمريكية «بيرل بك» الفائزة الرابعة عانت من مشكلة مشابهة، إذ أثمر زواجها الفاشل بنتًا واحدة مصابة هي الأخرى بالقصور العقلي، وعاشت تلك الابنة بعيداً عن أمها بين مؤسسات الرعاية العقلية الخاصة بالأطفال، مما كان يؤثر سلبيا على هذه المبدعة ـ الأم ـ خاصة بعد أن ساءت للغاية الحالة الصحية لهذه الابنة.. وبعد طلاقها، عانت من وحشة كبرى في حياتها.. ثم وافقت على الزواج من ناشر كان يهتم بترويج رواياتها.. وقد أصاب الحزن نفسه الذي أصيبت به «بيرل بك» الشاعرة الشيلية «غابريلا ميسترال».. وخاصة بعدما حازت جائزة نوبل عام 1945.. إذ ألم بهذه الشاعرة مرض خطير لم يرحمها حتى قضى عليها.. اضطرت، في بداية حياتها أن تعمل مدرسة لكي تساعد أسرتها الفقيرة.. ولم يكن راتبها من التدريس يكفي لرعاية تلك الأسرة..

غلاف الكتاب

فتوجهت لتعمل في الصحافة أيضا، وخلال تلك الفترة، تعرفت على شاب أحبته حباً عاصفاً.. لكنه ما لبث أن انتحر مسبباً لها صدمة جنونية، كانت تعاودها من حين لآخر.. وقد امتزجت مأساة تلك الحادثة بعد ذلك مع نسيج حياتها كامرأة، ثم جاءت حادثة أشد قسوة، وهي انتحار آخر قرره ابنها بالتبني، ثم صُدمت بانتحار الأديب النمساوي «ستيفان زيفايج» المقيم في البرازيل، الذي كان يعد من أهم أصدقائها.

الهروب من السلطة

وننتقل من مأسي «غابريلا ميسترال» إلى بكائيات الكاتبة «نيلي ساخس»، الفائزة السادسة بجائزة نوبل، فعلى الرغم من تمرد ساخس إلا أن الحزن والانهزام هما الصفتان الملازمتان لكل قصائدها. لقد تأثرت هذه الشاعرة بموت خطيبها عام 1934.. فنظمت قصائد مشحونة بالألم.. وقبل هذا كانت قد تعرفت على شاب، غير أن والدها رفضه أن يكون زوجا لها.. وهذا ما دفعها للهروب من سلطة الأب لتترك المنزل نحو حياة أكثر تحرراً، وبقيت مع ذلك الشاب الذي سبق أن رفض والدها زواجها منه، طيلة ثلاثين عاما، وتعرضت فيما بعد لاستجوابات من قبل النازية في ألمانيا، فهربت إلى السويد، حيث قدمت لها صديقتها الروائية «سلمي لاجيرلوف» مساعدات جمة، وإذا كانت هذه الشاعرة قد عانت شكلا من قسوة التمييز العنصري وملاحقة النازية الألمانية، فإن الروائية «نادين غورديمر» عانت فكرياً من هذه القضية، فكانت كل مؤلفاتها تندد بالفصل العنصري في جنوب أفريقيا، حيث قالت مرة عن هذه المأساة الإنسانية: «حتى الآن لم أنس مجيء الشرطة للبحث عن مربيتي السوداء.. متهمين إياها باحتساء الخمور التي كانت ممنوعة على الزنوج، ولن تغيب عن ذاكرتي صورة المكتبة العامة وهي ترفض دخول الزنوج إليها، فقد رأيت إحدى السيدات وهي تمنع بالقوة من دخول المكتبة.. لا لشيء، إلا لأنها سوداء، فكيف إذن لا تصبح قضية التفرقة العنصرية هي قضيتي الأساسية.!».

ومع الفائزة الثامنة « توني موريسون»، تبقى قضية التمييز العنصري قائمة في روايات هذه الكاتبة الزنجية، فنحن دائما إزاء امرأة سوداء مضطهدة في كل شخصيات رواياتها، فنساء «توني موريسون» من اللواتي يعانين من افتقار لعلاقة إنسانية متوازنة مع الآخر، ويعشن في ظل أزمات نفسية وعنف حقيقي.

وها نحن نصل إلى الفائزة التاسعة، الشاعرة «فيسلافا شيمبورسكا» التي بقيت دون زواج طوال عمرها، حتى غلب على كل كتاباتها التأمل في المصير الإنساني والاغتراب النفسي للمرأة.. والتوحد الوجداني، حيث تقول في إحدى تأملاتها، وهي تتحدث عن وحشة المرأة وسط تيارات ودوامات تعصف بكينونتها، «إن المنفى يتخطى حدود الوطن جغرافياً.. فالمنفى يتوالد بداخلنا ونحن بالوطن.. إنه نفي يومي يكبر فينا بطريقة مفجعة». لقد كانت تلك الشاعرة، مثل مثيلاتها الحاصلات على نوبل، تهتم بالإنسان الضائع في غربته، وبالمرأة التي تعاني استلاباً روحياً.. أو فكرياً أو اجتماعياً، من أجل تضميد الجراح الإنسانية، التي كانت المرأة أول من يتعرض لها.. في كل زمان.. ومكان.

أسباب ومؤثرات

ويرى الكاتب خالد غازي أن لتأخر ترجمة الأدب العربي أكبر الأثر في تأخر وصوله إلى العالمية، حتى يتم ترشيح أحد الكتاب العرب للجائزة في وقت مبكر، ويكفي أن نعلم أنه حتى عام 1985 لم يكن لنجيب محفوظ روايات مترجمة سوى روايتين فقط، ورغم أن رواية «أولاد حارتنا» التي ذكرت في حيثيات منحه الجائزة، كتبها في عام 1959، إلا أنه لم يحصل على الجائزة إلا في عام 1988، وليس العرب وحدهم من ابتعدت عنهم الجائزة فيكفي، أن نعلم أن كاتبًا بحجم «ميلان كونديرا» المهاجر إلى باريس ، والتركي «ياشار كمال» الذي يعيش في جنيف «ورفائيل ألبرتي» أكبر شعراء إسبانيا، والمجري «أشتفان أوركين» أكبر قاص مجري، لم ينالوا الجائزة ولا تم ترشيحهم إليها.

ومن جانب آخر، فإن لطبيعة الجائزة الأكاديمية، والتي يحافظ على قواعدها الكلاسيكية شيوخ لجنة التحكيم سبباً كبيراً في عدم مقدرتهم على المغامرة وتقبل التجريب، لأنهم مهمومون بالدرجة الأولى من التأكد من شروط منح الجائزة الأساسية، والتي تأتي في المقدمة قبل الموهبة الحقيقية، ولعل أهم هذه الجوانب هي الجانب السياسي، والذي لا بد وأن يتفق مع مبدأ السلام التي منحت من أجله الجائزة.

ويتفق رأي «ستوري آلين» السكرتير الدائم للأكاديمية السويدية مع الرأي السابق، معللاً تأخر وصول العرب لجائزة نوبل بسبب الترجمة، والتي ستظل – في رأيه – العائق الأساسي في وصول أدى الدول النامية والعربية إلى القائمين على الجائزة، ويضيف «ألين» إلى سبب الترجمة سبباً آخر وهو الترشيحات فلا فوز بلا ترشيح، لأن الأكاديمية من شروطها أن يتم منح الجائزة بناء على الترشيحات من رؤساء اتحاد الكتاب وأساتذة الأدب في بلد كل كاتب، وهي أحد الأسباب الهامة التي يغفلها العرب ولا يعطونها الأهمية اللازمة.

وعلى الرغم من انحياز سكرتير الأكاديمية السويدية لهذا الرأي، إلا أن هناك اتجاها آخر يرى العكس.. ولا يعتبر الترجمة سبباً أساسياً في ابتعاد الجائزة عن الكتاب العرب، فالكثير من الأدباء والشعراء غير العرب الذين ترجمت أعمالهم للغات العالمية، لم تشفع لهم الترجمة بالحصول على الجائزة، بدليل حصول البعض على الجائزة غالبًا ما يتم عن رواية بعينها، والتي تكون سبب الحصول على الجائزة. إن الأدب العربي كان أساس النهضة الأوروبية الحديثة، التي قامت على ما تمت ترجمته من التراث العربي، ولم يصل – هذا الادب – إلى العالمية بنجيب محفوظ، بل وصل لها من قبل محفوظ بسنوات طويلة.. هذا إلى جانب أن حصول «محفوظ» على نوبل هو ما سيمنع عربيًا آخر من الوصول إليها ليس قبل أقل من عقد من الزمان، والدليل على ذلك.. الهند بكل تاريخها الثقافي والإنساني لم يحصل هندي على الجائزة بعد شاعرها الكبير «طاغور».

ومن جانب آخر يرى أنصار هذا الرأي أن الوصول للعالمية ولجائزة نوبل لن يكون إلا بعد وصول الكتاب لقراء يلادهم بالدرجة الأولى، وهي الحقيقة الغائبة عن الغالبية العظمى من الكتاب العرب، ولعل حجم مبيعات الكتب في البلاد العربية هي خير دليل على ذلك، فلو أن الأدب العربي نجح في الوصول للإنسان العادي بالشكل اللائق، لاستطاع تخطي العالمية وبالتالي الحصول على نوبل، مثلما نجح كتاب أمريكا اللاتينية، والذين يعتبرون من دول العالم النامية، إلا أن أدبهم استطاع السيطرة على القراء في العالمين العربي والغربي،خاصة في السنوات الأخيرة الماضية.. ومن جهة أخرى، في حالة التسليم أن الترجمة هي السبب الأول في ابتعاد العرب عن جائزة نوبل، ورغم فطنة الكتاب العرب لهذا السبب والذي ساعد على تنشيط حركة الترجمة، والتي تحولت إلى ما يشبه الهوس للبحث عن العالمية كخطوة للوصول لنوبل، إلا أن حركة الترجمة للأدب العربي ما زالت قاصرة رغم الجهود المبذولة فيها، خاصة وأن الترجمة العربية ما زالت لا تتعدى المجال الأكاديمي، أو المهتمين بالأدب لأسباب سياسية واقتصادية، وارتباط الترجمة في أغلب الأمور يعتمد على العلاقات الشخصية من المبدع ذاته، ولا تترجم بهدف الذيوع والتوزيع الجماهيري، هذا إلى رداءة الترجمة المقدمة، والتي في أغلب الأحوال تنتقص من قيمة الأعمال المترجمة.. وبالتالي تحد من انطلاقها وتخطيها لحاجز المحلية.

توازنات مؤثرة

ولا يختلف المتابع للأسماء التي منحت الجائزة ، أنها منحازة لعدة فعاليات سياسية وعلمية وأدبية، واختيار شخص بعينه فيه ظلم للآخر، أو للآخرين، لا فرق في هذا بين العرب أو غيرهم، الجائزة في حد ذاتها هامة، ولكن أهميتها كانت ستكون أكثر لو طبعها نوع من العدل في التوزيع، ولهذا لا ينبغي أن يبحث العربي اليوم عن نوبل، لأن العدل في التوزيع غير متوفر، ومعظم الجوائز التي تمنحها جهات أجنبية تسير في هذا الاتجاه الذي يسعى إلى سلب الإبداع العربي وتفريغه من محتواه الإنساني العربي.. إن المعيار الأساسي لمنح الجائزة لا يستند إلى القيمة الأدبية ، بدليل أنها منحت لمن لا يستحقونها، لكن نجيب محفوظ نالها بجدارة.

ثمة تقاطع لظروف سياسية وتوازنات تؤثر على قرارات اللجنة، أما الجهات والمؤسسات العربية التي تتولى أمر ترشيح المبدعين العرب فإنني أتساءل عن معرفتها التامة بالإبداع العربي.. أم هي الأخرى تسير وفق معايير محددة تهدف لخدمة أغراض معينة بعيدة كل البعد عن الأهداف الإبداعية؟ كما أتساءل : هل يمكن للعرب أن يرشحوا مبدعا لنيل جائزة كبيرة وهم بعد عاجزون عن ترشيح زعيم سياسي وفق أسس ومبادي ديمقراطية؟

لكن رغم كل هذه الحقائق.. هل سيكف العرب عن انتظار نوبل جديدة؟ وهل ستكف الأقلام عن التنبؤات بمرشحين جدد؟ وهل سيأتي أكتوبر أو نوفمبر كل عام، دون ان نصاب بالدهشه في أديب نوبل الجديد؟

* كاتب من مصر

استمرار فعاليات الدورة الـ38 لمعرض الكتاب بالقاهرة وسط مقاطعة صامتة لأنشطته:

عبد المنعم تليمة يتهم الدولة بتغييب الحريات ويتهم الثقافة بالثنائية

القاهرة ـ «القدس العربي»:

تواصلت في الأيام الثلاثة الماضية فعاليات معرض القاهرة الدولي الثامن والثلاثون للكتاب حيث شهدت عدة قاعات بالمعرض ندوات مختلفة المشارب والاتجاهات، وسط حضور أقل من المعتاد ووسط فعاليات تم إقصاء عدد من الرموز عن المشاركة فيها، ويعتبر بعض المثقفين أن حالة المقهى الثقافي تعد مرآة لحالة المعرض، وعندما يتغيب نجوم الثقافة عن المقهى الثقافي تكون الدلالة الأكيدة هي حالة المقاطعة الصامتة للفعاليات.

وقد دارت عناوين الندوات في الأيام الماضية حول عدة عناوين ومنها «هويات الشعوب في عالم القطب الواحد» وتحدث فيها أحمد زايد، سمير غريب، كامل زهيري، نبيل زكي، وأدارها نبيل عبد الفتاح، أما ندوة «انتشار ثقافة الصورة ونتائجها المستقبلية» وتحدث فيها سعيد الشيمي، صفوت العالم، ماري تريز عبد المسيح، نسمة البطريق، وادارها سمير سعد الدين، أما المقهى الثقافي فقد شهد ندوة تحت عنوان «الفكر الألماني وتغيير العالم» تحدث فيها أنور مغيث، سعد توفيق، صلاح قنصوة، مجدي عبد الحافظ، وأدارها الدكتور إمام عبد الفتاح، أما ندوة كاتب وكتاب فقد شهدت قراءتان لكل ممن يونان لبيب رزق حول كتابه «محمد علي الكبير» وناقش الكتاب جمال بدوي، عبد العظيم رمضان، لطيفة سالم، وكذلك قدمت كل من عالية ممدوح، نوال مصطفى، هبة عيسو، كتاب عبد الهادي مصباح «الحب والضحك والمنامة».

أيضا شهدت السراي الرئيسية شهادة للدكتور عبد المنعم تليمة وندوة حول التنوع الثقافي في ظل العولمة، وسوف نحاول إلقاء نظرة على بعض هذه الفعاليات.

عبد المنعم تليمة ومشروع النهضة

في محور الشهادات التقى جمهور المعرض بالدكتور عبد المنعم تليمة الناقد والأكاديمي المعروف وقدمه الدكتور وحيد عبد المجيد نائب رئيس الهيئة.

في البداية أثنى الدكتور تليمة على معرض الكتاب وفعالياته مؤكدا أنه يشعر تجاهه بزخم تاريخي يعيده إلى اللحظة الأولى عندما عمل بجوار الدكتورة سهير القلماوي عندما كانت رئيسة للهيئة العامة للتأليف والنشر قبل أن يتغير اسمها إلى هيئة الكتاب حيث كانت اول من أقام هذا المعرض، وأشار تليمة إلى أن الفكرة كانت تتمحور حول ضرورة تحويل المعرض إلى أداة للتواصل مع الثقافة العربية والأجنبية ومع المثقفين من كل الأجناس والأصقاع.

و أشار تليمة إلى أنه في هذا السياق لا يمكنه إغفال الأساتذة الكبار الذين علموه وتربى عليهم مثل أحمد لطفي السيد، العقاد، طه حسين، ومحمد حسنين هيكل ومحمود شاكر ومحمد مندور ولويس عوض ومحمد عبد الوهاب وغيرهم.

ويواصل تليمة قوله بأن هذه الأسماء لابد تنقلنا إلى الحديث عن عصر النهضة، وطلب أن يعرج على مشروع النهضة الياباني الذي وصفه بالمعجزة لكنه في نهاية الأمر فعل بشري توافرت له الظروف التاريخية التي دفعت إلى تحقيقه على ارض الواقع، وأن اليابانيين قد انطلقوا في مشروع نهضتهم من إرسال بعثة يابانية لمصر لمعرفة أسرار النهضة والحضارة المصرية، وكتبت هذه البعثة تقريرها عن الحضارة المصرية ولا يزال هذا التقرير موجودا بطوكيو حتى اليوم. ورأى الدكتور عبد المنعم تليمة أن تعثر مشروع النهضة المصري يعود إلى عاملين رئيسيين أولهما أننا نملك موروثا حضاريا وثقافيا هائلا لم نفلح في قراءته قراءة نقدية تسمح بتجاوزه أو البناء فوقه، والثاني يرتبط بالاستعمار لفترة طويلة والكفاح لتحرير الوطن وتحديث المجتمع مما أنهك القدرات المصرية لزمن طويل. وأضاف تليمة أن كثيرا من ذلك عطل قدرت المجتمع المصري ولكن ذلك لا يجب أن يفقدنا الأمل في الخروج من عثرته الراهنة، موضحا أن الصعود التكنولوجي الخطير الذي نعيشه في زماننا الراهن ينتظر صعود أيديولوجية روحية وفكرية لن تخرج إلا من حضارات الشرق خاصة مصر والهند والصين.

و تناول تليمة مسألة الإصلاح مؤكدا أنه يجب أن ينطلق مما هو ثقافي ليتوازى معها ويسير بنفس القوة ومع خطوات الإصلاح على جميع المسارات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ورأى أن مصر ليست ضمن الدول النامية أو مجتمعات الجنوب ولكنها تقع في قلب العالم كدولة أفريقية عربية وإسلامية وفقا لما يؤكده التاريخ، وأضاف أن هذا الطريق هو الذي أثبت أن مصر هي الدولة الوحيدة في العالم التي لم تعرف انقساما ولا طائفية أو أي حركة انفصالية وأردف تليمة ان ما تعانيه مصر يمكن وصفه بالمعوقات أي أن مصر تملك مجتمعا عظيما يملك المقومات الثقافية المعطلة، مؤكدا أنه يوجد لدينا خمسة ملايين عالم ومفكر مصري يتناثرون في كل أرجاء الكرة الرضية بينهم عباقرة في علوم البيئة والفضاء غير أن مصر مكبلة بالقوانين المقيدة للحريات وانتشار الثنائيات المعرقة مثل الأنا والآخر والهوية والعولمة مؤكدا أنه لا يجوز للمصري أن يتساءل عن هويته فهو أول إنسان في التاريخ وفي الحضارة الإنسانية والعالم كله يشيد بحضارته الفرعونية، وأضاف تليمة أن الإصلاح في مصر يجب أن ينطلق من القاعدة الثقافية الشاملة التي تقوم على الدين والفلسفة والفن والعلم وتوظيف ما تتمتع به الثقافة المصرية من تعددية عبر التاريخ وفرها نهر النيل منذ القدم.

و طرح تليمة مشروعا فكريا لإصلاح الثقافة المصرية عبر طريقين أولهما المؤسسات الشعبية او التجمعات الأهلية والأخرى عبر التجمعات الرسمية على أن تتخلى المؤسسة الرسمية عن الاحتكار الواسع للثقافة والإعلام وأنتتجه نحو ما ينمكن تسميته بالصناعة الثقافية الثقيلة عبر إنشاء الموسوعات والمعاجم ورعاية الآثار ورعاية المواهب والارتقاء بالذائقة الجمالية للشعب على أن يتم إنشاء وزارة للآثار ووزارة أخرى للترجمة وقدم تليمة برنامجا ينهض على خمسة عناصر هي تصفية احتكار قوة سياسية واحدة لإدارة البلاد ووضع خريطة للتطور السلمي لتحديد انتقال السلطة وتداولها واستكمال مؤسسات المجتمع المدني وإعادة توزيع ثروة مصر بما يقضي على التفاوت الطبقي ومقاومة الفقر وغياب العدالة وجعل العلم وتطبيقاته يقود العمل المصري في الإصلاح، ثم حدد تليمة عدة عناصر لعلاقة مصر بالعالم لخارجي تعتمد على المشاركة الفعلية في تأسيس نظام عالمي جديد لعالم نبيل وشجاع وتزكية الأقطاب المتعددة في مواجهة إرادة القطب الأمريكي الواحد.

التنوع الثقافي في ظل العولمة

تحت هذا العنوان استقبلت السراي الرئيسية بالمعرض ندوة موسعة أدارها الدكتور مصطفى الفقي وتتحدث فيها الدكتور عبد الوهاب المسيري الذي بدأها بقوله أنه لم يحدث في تاريخ البشرية أن أصبحت الحروب متواصلة مثلما حدث في العصر الحديث وأضاف أن الإنسان الحديث ينفق على أسلحة الدمار الشامل أكثر مما ينفقه على الإنتاج، وأشار إلى أن روسيا والولايات المتحدة تملكان أسلحة تكفي لتدمير العالم عدة مرات، وحول تعريف الحداثة والعولمة باعتبارها تمثلان حرية التجارة والمعلومات بدون قيود قال أن اهم سلبيات العولمة أن 90 % من الشركات العابرة للقارات هي شركات غربية وهو ما يجعلنا ننظر إلى العولمة على انها شكل جديد من شكل الهيمنة الأمريكية على العالم، وأضاف المسيري أن المشكلة الحقيقية تكمن في فساد النخب الحاكمة التي أصبحت جذورها تمتد إلى الخارج أي أن مصالحها الشخصية تتفق مع مصالح النظام العالمي الجديد وليست نابعة منن مصالح الشعوب أو مصالحها القومية مشيرا إلى ان العولمة أفرزت قاعدة خطيرة هي التمركز حول الغرب أي أن الغرب أصبح يدير العالم كله وبات النموذج الأمثل للحياة السياسية والاجتماعية وفقا لهذا التصور.

وأكد المسيري أن العولمة تعمل فقط لصالح الأغنياء الذين يمتلكون كل وسائل الرفاهية ومن المستحيل أنت تصل شعوب العالم الثالث وبالتحديد الشعوب العربية والإسلامية لمستوى معيشة شعوب العالم الغربي الذين يستغلون ما يقرب من 80 % من إنتاج العالم. وقال المسيري أن الرئيس جورج بوش وضع نهاية للتعريفات القديمة للعولمة بعد أن قام بتدمير أفغانستان والعراق وفقضى على فكرة العولمة الثقافية واستشهد المسيري أيضا بما قاله شيمون بيريز للمثقفين: «جربتم قيادة مصر للشرق الأوسط خلال الخمسين عاما الماضية ولم تستفيدوا شيئا فلتجربوا قيادة إسرائيل وسترون الفرق». وهنا يقول المسيري: إذن ستكون الهيمنة العسكرية هي البديل للعولمة أو الهيمنة الثقافية.

أيضا تحدث المفكر الأسباني جوتزالو فرنانديز الذي تناول موضوعا يبدو بعيدا بعض الشيء عن موضوع الندوة حيث تناول مدرسة طليطلة للترجمة والتي اعتبرها إحدى المدارس الكبيرة في مجال الترجمة وقال أن المدرسة أنشئت منذ عشر سنوات بهدف الترجمة بين الأسبانية والعربية لتحقيق التقارب بين العرب والأسبان وقال إن عملية الترجمة عملية معقدة، وأثنى الرجل على المشروع القومي للترجمة الذي يصدره المجلس الأعلى للثقافة وأضاف ان الترجمة من العربية والأسبانية لازالت عملية صعبة بالرغم من الصلات التاريخية القديمة.

و اشار جوتزالو فرنانديز أن مدرسة طليطلة للترجمة استطاعت ترجمة عشرين كتابا من العربي للأسبانية خلال عشر سنوات لعدد من الكتاب العرب من مصر ولبنان والمغرب وتونس إضافة إلى عدد آخر من الدول العربية.

ملصق المعرض

بعد ذلك تحدث الدكتور طارق حجي الذي بد بقوله بأنه يرفض لفظ العولمة والكوكبة في بعض الترجمات العربية ونه يفضل استخدام كلمة عالم ما بعد الحرب الباردة.

واضاف حجي أنه بعد الحرب العالمية كمان للغرب أربعة أعداء هم اليابان وإيطاليا الفاشية والاتحاد السوفييتي والعرب، واضاف أن الغرب تخلص من عدوين لدودين في الحرب العالمية الثانية هما اليابان وإيطاليا ثم استغرق 45 عاما حتى يتخلص من شريكه «الاتحاد السوفييتي» ثم بدأ بعد ذلك عصر جديد هو عصر العولمة. وأردف حجي أنه يؤمن بعالمية المعرفة في العلوم الاجتماعية كما هو الحال في العلوم التكنولوجية وقال أن التنوع الثقافي معلم من معالم الحياة وأنه يثري الحياة ولا يقوضها وأضاف أنه عندما دخل غير العرب في الثقافة العربية أثروها كثيرا فالفارابي وسيبويه لم يكونا من العرب وكذلك كان البخاري.

ويرى حجي أنه برغم عمليات العنف التي تقوم بها بعض الجماعات المسلحة إلا انه ليس من بينهم أحد من بلاد تتعدد فيها الثقافات مثل الهند أو سويسرا، وأرجع ذلك إلى أن ثقافة التعدد طبعت ثقافة هؤلاء وبالتالي لا مجال لتعدد الولاءات داخل القبيلة ومن ثم ينتفي كل ما من شأنه أن يؤصل لفكرة عدم التعددية أو التنوع الثقافي. وأضاف أننا لا نستطيع أن نتعامل مع العالم دون أن نعرفه، كما عبر عن دهشته لوجود أعداد كبيرة من مراكز الأبحاث الحكومية وغير الحكومية لدراسات الشرق الأوسط ومراكز دراسات للشئون اليابانية والإيرانية أما نحن فلا يوجد لدينا مراكز دراسات من أجل التعرف على الآخر ودراسته.

فلسفة محفوظ وأدبه

و انت الندوة التي انعقدت بسراي «كاتب وكتاب» قد تناولت بالنقاش كتاب الدكتورة وفاء إبراهيم لصدر تحت عنوان «الفلسفة والأدب عند نجيب محفوظ» وقد أدار الندوة الكاتب الروائي يوسف القعيد.

وقد تناولت وفاء إبراهيم في استعراضها للكتاب السيرة الذاتية لنجيب محفوظ وانتهت إلى سؤال حول تأثير الدراسة الجامعية لاسيما دراسته للفلسفة في أدبه، فأين الفلسفة في البناء الروائي خاصة وان الفلسفة ليست من قبيل الدراسات التي يمكن للمرء أن يتجاهلها في أنشطته الفكرية الأخرى ورؤيته للحياة.

وأضافت إبراهيم أن هناك نموذجان للتواجد الفلسفي في أدب نجيب محفوظ وهو بيان للنظريات الفلسفية التي تبناها في أعماله التاريخية ابتداء من «عبث الأقدار» إلى «يوم قتل الزعيم» وكذلك «ليالي الف ليلة» باعتبار هذه أعمال تعكس على نحو واضح أعم لنظريات الفلسفية الحديثة في الوجود والمعرفة على نحو يكاد يقطع بوجود هذه النظرية في صميم بناء العمل كله خاصة وأن «ليالي ألف ليلة» من النوع الذي يسميه علماء الأدب والنقد باسم «التناص» أي تركيب نص على نص مع المغايرة في الدلالة المستهدفة، فنجيب محفوظ يوظف شخوصه في الليالي توظيفا فكريا من خلال نظرية الفيلسوف لألماني كانط في نقد العقل.

عُدتُ والعود أحمد

صباح زوين*

■ عُدتُ والعود أحمد واشتقتُ الصفحة، اشتقتُ رائحة الخُزامى التي أتيتُ بها في ذلك الوقت من لاروشيل ونثرتها على الأسطر، بين شمس كانت حينها في أوجها، أو كانت أيضاً على وشك الغ